الرسالة ١٤ (١٤٢٨/٢٠٠٧) ٢٣٩-٢٧٤

# فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي

د. محسن يوسف

## حياته :

يعتبر قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين الباهلي الذي ولد عام ٤٩ هـ/٦٦٩م – وقتل عام ٩٦هـ/٧١٥م من شجعان العرب ورجالا م حزما ورأيا ونبلاً وفصاحة . تعود شهرته إلى كونه من أعظم الفاتحين العرب المسلمين في الفترة الأموية حيث يعتبر فاتح بلاد ما وراء النهر . ينتمى قتيبة إلى عائلة مشهورة وذات ممتلكات واسعة في مناطق متعددة من جنوب العراق . أما قبيتله باهلة ، فكانت في نظر كثير من عرب تلك الفترة من أرذل القبائل العربية ؛ فحسب ما ذكره ابن كثير على لسان ابن خلّكان "أنّ الأشعث بن قيس قال : يا رسول الله ! أتتكافأ دماؤنا ؟ قال : نعم ! ولو قتلت رجلاً من باهلة لقتلتك . وقيل لبعض العرب : أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلي ؟ قال : بشرط أن لا يعلم أهل الجنة بذلك . وسأل بعض الأعراب رجلاً ممن أنت ؟ فقال : من باهلة ؛ فجعل يرثي له . قال : وأزيدك أني لست من الصميم . وإنما أنا من مواليهم ؛ فجعل يقبل يديه ورجليه ؛ فقال : ولم تفعل هذا ؟ فقال : لأنّ الله تعالى ما ابتلاك بهذه الرزية في الدنيا إلا ليعوضك الجنة بالآخرة" (ابن كثير ، ج٩ ، ص١٦٩ . انظر أيضا ابن الجوزي ، ص ١٢٧٥) .

كان مسلم الباهلي ، أبو قتيبة ، أحد المقربين من الخليفة الأموي الثاني يزيد بن معاوية (ت٦٤هـ/٦٨٣م) . وفي فترة ثورة المختار الثقفي (ت٦٨هـ/٦٨٧م) كان

الأب مسؤولا عن سجن البصرة. وأثناء ثورة عبد الله بن الزبير تعاون الأب مع مصعب بن الزبير الذي ثار ضد الأمويين، وقد قتل من قبل الجنود الأمويين أثناء محاولة هذا الجيش القضاء على مصعب واخماد ثورة أخيه عبدالله بن الزبير في العراق عام٧١هـ/٦٩٠م (ابن كثير، ج٩ ، ص١٦٧ . بطاينه ، ٢٢٣) .

أثناء محاولة الحجاج بن يوسف القضاء على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في فترة حكم الخليفة عبد الملك بن مروان أثار قتيبة بن مسلم الباهلي اهتمام الحجاج لحسن بلائه ؛ فعينه واليا عنه على الري عام ٨٢هـ/٧٠١م . في عام ٨٦هـ/٧٠٥م عينه واليا على ولاية خراسان . من المعروف أنّ ولاة خراسان حتى هذا التاريخ كانوا جميعا من اليمنيين ، وعليه ، فإنّ قتيبة كان أول حكام هذه الولاية المهمة الذين كانت تعود أصولهم للقبائل القيسية ( Encyclopaedia of Islam. 2 ed. vol. 5, p. 541) .

حكم قتيبة بن مسلم الباهلي ولاية خراسان لمدة عقد من الزمان (٨٦هـ/٧٠٥م - ٩٦هـ/٧١٥م) عمل خلالها على إرساء دعائم الحكم العربي الإسلامي في خراسان وفتح مناطق ما وراء النهر وخوارزم وفرغانة ، حتى أنه فتح مدينة كاشغر التي كانت تعتبر أول المدن التابعة للصين .

**محاولات فتح العرب لمنطقة ما وراء النهر قبل قتيبة بن مسلم الباهلي :**

تتكون ولاية ما وراء النهر من المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر جيحون (نهر أموداريا) وإلى الغرب والجنوب من نهر سيحون (نهر سيرداريا) وفرغانة وإلى الجنوب الشرقي من ولاية خوارزم . وتعتبر مقاطعة الصغد التي تقع في مركز الولاية أهم مقاطعاتها وهي المنطقة الواقعة على أطراف نهر الصغد . من أشهر مدن هذه المقاطعة مدن سمرقند وبخارى وكِش ونسف وبيكند . من المعروف أنّ الجغرافيين

العرب اعتبروا منطقة سمرقند من أجمل أربع بقاع الأرض قاطبة لكثرة مزارعها وبساتينها (Encyclopaedia of Islam. 2 ed. vol. 5, p 852) .

في فترة حكم الخليفة الراشدي عثمان بن عفّان وصلت القوات العربية الإسلامية التي كانت تطارد فلول الجيش الساسانيّ منطقة خراسان واتخذت من مدينتها مرو قاعدة لها . من هناك هاجمت القوات العربية منطقة طُخارستان الواقعة إلى الجنوب من منطقة ما وراء النهر ، وعلى ما يظهر أن إحدى فرق الجيش العربي الإسلامي قد اجتازت نهر جيحون إلى منطقة ما وراء النهر دون أن تفتح أي بلاد مهمة فيها.

أما في فترة حكم الخليفة علي بن أبي طالب وبسبب اندلاع الحروب الأهلية بين المسلمين أنفسهم ، فقد توقّف نشاط الفتوحات ، ليتم استئنافه من جديد في فترة حكم معاوية بن أبي سفيان ؛ ففي عام ٥٤هـ/٦٧٤م اجتاز القائد عبيد الله بن زياد نهر جيحون وانتصر على جيش من أهل الصغد الذي كان بقيادة ملك بخارى . وقد عاد العرب بقيادة سالم بن زياد لمهاجمة بلاد ما وراء النهر في فترة حكم الخليفة يزيد بن أبي سفيان . وقد قضى هذا الجيش فصل الشتاء في تلك المنطقة وذلك لأول مرة في التاريخ الإسلامي .

بعد هذا التاريخ اندلعت الحروب الأهلية من جديد في مركز العالم الإسلامي ، مما أدى إلى وقف نشاط الفتوحات ، بل تراجعت كثير من القوات العربية الإسلامية عن مواقعها التي فتحتها سابقًا . عاد العرب والمسلمون لاستئناف عملية الفتوحات على عدة جبهات بعد استتباب الأمن في فترة حكم كلّ من عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ؛ فعلى الجبهة الشرقية ، جبهة خراسان – ما وراء النهر ، قام المهلّب بن أبي صفرة في عام ٨٠ هـ باجتياز نهر بلخ وهاجم مدينة كِس (أو كِش) التي اضطرت إلى دفع الجزية عام ٨٢ هـ (بطاينة ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣ . Encyclopaedia of Islam, 2 ed. vol. 5, p. 853) ، وكانت الغارات

الجديدة دف إلى التمسك بالمناطق المفتوحة أكثر من الغارات السابقة . ومما يؤكّد على أنّ العرب قد أخذوا يتمسكون في البلاد المفتوحة والاستيطان ا قبل فترة ولاية قتيبة بن مسلم أنهم كانوا قد تركوا وراءهم حكّاما للمدن والمناطق ؛ فقد ذكرت المصادر أنّ جموع العرب والصغديين شقّوا عصا الطاعة وطردوا من بلادهم عمال والي خراسان يزيد بن مهلّب بن أبي صفرة الذي حكم من سنة ٨٢-٨٥ ه . في هذا الشأن يذكر الطبري على لسان موسى بن عبد الله بن خازم السلّمي بأنه اقترح على القوات المتحالفة معه : "ولكنا نخرج عمال يزيد من وراء النهر مما يلينا وتكون هذه الناحية لنا نأكلها" (الطبري ، ج ٦، ص ٤٠٣) .

مما يسترعي الانتباه فيما يتعلّق بموضوع الفتوحات العربية في المنطقة قبل ولاية قتيبة بن مسلم ، مغامرات موسى بن عبد الله بن خازم السلَمي الذي كان والده واليا على ولاية خراسان قبل أن يقتله الأمويون عام اثنين وسبعين ، وذلك لتأييده ثورة عبد الله بن الزبير . لقد طلب عبد الله بن خازم من ابنه موسى أن يحمل أثقاله من مرو ويلتجئ إلى أحد ملوك ما وراء النهر أو أن يحتلّ لنفسه قلعة هناك وذلك على إثر صراعه مع الأمويين وبعد أن قتل مقتلة عظيمة في بني تميم (بطاينة، ص ٢٢٣) .

خرج موسى من مرو بصحبة مائة وعشرين شخص ، فذهب إلى آمل ، فانضم إليه عدد من "الصعاليك" ، فأصبح مجموع من معه أربع مائة شخص . عندها اتجه إلى مدينة زم ، فقاتل أهلها وانتصر عليهم ومن ثمّ عبر نر جيحون إلى مدينة بخارى ؛ فلم يستقبله ملكها أو أي من حكّام وسكّان تلك المناطق ، فأتى سمرقند ، فاستقبله ملكها طَرخون ، إلا أنه أساء الإقامة ، فطرده الملك ، فذهب إلى كِس ، إلا أنّ صاحبها استعان بطَرخون ، فهرب إلى مدينة ترمذ الواقعة على نر جيحون . في ترمذ تحبب إلى ملكها حتى حانت له الفرصة في السيطرة على المدينة وحصنها ، فقام بطرد ملكها وأتباعه ، الأمر الذي دعا ملكها أن يطلب المساعدة من الأتراك

إلا أنّ موسى نجح بخديعتهم وانتصر عليهم جميعا . ورغم قرب المسافة بين ترمذ ومرو إلا أنّ والي خراسان بكير بن وشاح لم يتعرض له بسوء بالعكس من الوالي الجديد أُمية بن عبد الله بن خالد بن الوليد الذي قرر محاربته ، فاتفق مع الأتراك وهاجموه سوية وفرضوا عليه الحصار لفترة طويلة . يقال : إنّ موسى كان يقاتل العرب أول النهار والأتراك آخر النهار ولم يقدروا عليه ، فرفعوا الحصار عنه وعادوا إلى بلادهم خائبين بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة . على إثر هذه الأحداث أقالت الدولة الأموية واليها على خراسان وعينت مكانه المهلّب بن أبي صفرة ، إلا أنّ المهلب لم يتعرض له بسوء ، بل على العكس من ذلك فقد نصح أبناءه الذين أصبحوا ولاة خراسان من بعده أن يتركوه وشأنه (الطبري ، ج ٦، ص ٣٩٨ – ٤٠٣) .

في بداية عقد الثمانينات التف حول موسى عدد كبير من ا موعات التي كانت تعارض الدولة الأموية حتى أصبح تعداد جنوده حوالي ثمانية آلاف جندي . كما التف حوله أيضا ملوك مهمون من مناطق ما وراء النهر وجنوب خراسان دف مهاجمة يزيد بن المهلّب الذي أصبح واليا على خراسان منذ عام ٨٢ هـ ، إلا أنّ موسى حاول إقناع القوات المتحالفة بالاستقلال في منطقة ما وراء النهر وطرد عمال يزيد منها وعدم مهاجمته في خراسان . على خلفية هذه الأحداث قرر قادة ما وراء النهر من عرب وأعاجم التخلّص من موسى بسبب معارضته لخططهم ، إلا أنه انتصر عليهم وبدد شملهم . وبعد عزل يزيد بن المهلّب وتعيين أخيه المفضل بن المهلّب على ولاية خراسان ، أراد الوالي الجديد التقرب من رئيسه الحجاج بن يوسف ، فأعد جيشا كبيرا ، أكثر من ثمانية عشرة ألف جندي ، وتحالف مع ملوك صغديين عديدين ، فحاربوه وانتصروا عليه وقتلوه عام ٨٥ هـ (الطبري، ج ٦، ص ٤٠٨ – ٤١١) .

**فتوح قتيبة بن مسلم :**

بعد استتباب الأمن والنظام في مركز الدولة الإسلامية في النصف الثاني من فترة حكم عبد الملك بن مروان أخذ ولاة خراسان في إعداد العدة لاستئناف نشاط الفتوحات في المناطق الشرقية من خراسان وفي مناطق ما وراء النهر . كما تمّ استئناف عمليات الفتح في جبهة السند (جنوب الباكستان) وجبهة شمال إفريقيا والأندلس ؛ ففي منطقة خراسان تجددت عملية الفتوحات على يد الولاة المهلّب بن أبي صفرة وابنيه يزيد والمفضل الذين حكموا منذ عام ٨٠ وحتى ٨٦ هـ ، لكن هذا النشاط كان محدودا بعض الشيء إلا في فترة ولاية المفضل الذي لم يحكم سوى تسعة أشهر ، حيث قام المفضل في الأشهر الأولى من ولايته بالقضاء على حركة موسى بن عبد الله بن خازم في جنوب منطقة ما وراء النهر . وعندما وصل قتيبة بن مسلم الباهلي إلى مرو واليا جديدا على خراسان . كان المفضل يستعرض بالجيش الذي أعده للقيام بحملة عسكرية جديدة (الطبري ، ج ٦، ص ٤٢٤ - ٤٢٥) .

لقد شهدت فترة ولاية قتيبة على خراسان التي استمرت عشر سنوات فقط، أعظم عمليات الفتح الإسلامي على هذه الجبهة، حيث قاد جنوده في جبهات القتال في كل مواسم الحروب (الفصل الصيفي) من كل سنة. فعندما وصل الى مرو عاصمة امارته عام ٨٦ وجد بأن الفتح الإسلامي للمنطقة الشرقية من خراسان والمنطقة الجنوبية من منطقة ما وراء النهر، المحاذية لنهر جيحون، ما زال في بداياته ولم يتجذر بعد، لذلك قضى سنينه الأولى في حكم الولاية، أي حتى نهاية عقد الثمانينات، في تعميق الفتح الإسلامي في هذه المناطق والقضاء على المتمردين المحليين واحكام قبضته عليها. أما المرحلة الثانية من أعماله العسكرية فقد امتدت من عام ٩٠ وحتى عام ٩٣. وقد تكللت أعماله خلال هذه الفترة بفتح جميع

المنطقة الواقعة بين نهري جيحون وسيحون، أي ولايتي ما وراء النهر وخوارزم. وفي المرحلة الثالثة والتي امتدت من عام ٩٤ حتى عام ٩٦ فقد شهدت محاولات قتيبة فتح مناطق جديدة وبعيدة مثل فرغانة والمنطقة الواقعة الى الشمال من نهر سيحون ومدينة كاشغر التي تعتبر أول مدن الصين من الجهة الغربية. ولكن لا بد من التنويه الى أنه لم يكن هناك فصل تام بين هذه المراحل، لأن الظروف الموضوعية كانت تتطلب تتداخل المراحل مع بعضها البعض. بمعنى أنه كانت هناك محاولات للوصول الى فرغانة والمنطقة الواقعة الى الشمال من نهر سيحون منذ السنوات الأولى من ولاية قتيبة، كما أن عمليات اخماد الثورات المحلية في شرق خراسان وجنوب ما وراء النهر استمرت حتى نهاية فترة ولايته، الا أن هذه العمليات كانت قليلة من ناحية العدد وهزيلة من ناحية القوة ( Encyclopaedia of Islam 2 ed. vol. 5, pp. 541, 853 – 854).

فيما يلي عرض مختصر للأعمال العسكرية التي قام بها قتيبة مرتبة حسب السنين مع الوقوف على المعارك المهمة.

عند وصول قتيبة الى مرو عام ٨٦ وجد واليها المفضل قد أعد العدة واخذ يستعرض جيشه لغزو أخرون وشومان، فأخذ قتيبة القيادة منه وخطب بالجنود وسار بهم الى الطالقان فتلقاه قادة بلخ ومنطقتها مذعنين وساروا معه فقطع النهر الى صغنيان فتلقاه ملكها بالهدايا وأهداه مفتاح المدينة الذهبي ودعاه الى مدينته وسلمها له. وكان ملوك أخرون وشومان قد ضيقوا على ملك صغنيان، فصالحوا قتيبة على فدية، فعاد الى مرو بعد أن عقد اللواء لأخيه صالح بن مسلم الذي هاجم أخشيكت عاصمة فرغانة القديمة وعبر نهر سيحون وهاجم مدينة قاشان وعاد سالما غانما. (ابن خلدون، ج ٣، ص ٥٩. بطاينة، ص ٢٢٣ - ٢٢٤) .

في عام ٨٧ وبعد أن استتبت الأمور لقتيبة في أخرون وشومان وجنوب ما وراء النهر بعث لنيزك ملك باذغيس (جنوب مرو) يهدده بمهاجمته والقضاء عليه إذا لم يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين بحوزته وإذا لم يعد للطاعة، فأطلق نيزك الأسرى وعقد صلحا معه. وفي موسم الغزو من تلك السنة قرر قتيبة غزو بيكند الواقعة الى جنوب بخارى فسار الى آمل ومنها الى زم ومن هناك عبر نهر جيحون وفرض حصارا على بيكند، الا أن اهلها طلبوا النجدة من أهل الصغد الذين لبوا النداء وفرضوا حصارا قويا حول قوات قتيبة حتى أن قتيبة لم يتمكن من ايصال رسائله واخباره الى مرو والى العراق لمدة تزيد عن الشهرين. بعد ذلك دارت معارك قوية بين الطرفين كان النصر فيها حليفا لقتيبة والمسلمين. وعندما باشر قتيبة بهدم سور المدينة لإقتحامها طلب قادتها الصلح فوافق قتيبة على ذلك على أن يعين عليهم أحد بني باهلة. وبعد مغادرته المدينة انتفض سكانها وقتلوا عاملهم الباهلي فعاد قتيبة وحاربهم وفتح مدينتهم عنوة وقتل مقاتلتهم وحصل على غنائم كثيرة وعاد الى مرو(بطاينة، ص ٢٢٤. ابن الأثير، ح ٤، ص ١٠٧ - ١٠٨).

في عام ٨٨ غزا قتيبة مدن نومشكث وراميثَنة فصالحوه على جزية الا أنه عندما كان في طريق عودته الى مرو هاجمه جمع كبير من الترك والصغديين والفرغانيين قدرت بعض الروايات عددهم بمئتي الف جندي. وقد دارت معارك كبيرة بين الطرفين كان النصر فيها حليف قتيبة. وقد أبلى نيزك ملك باذْغيس في هذه المعارك الى جانب المسلمين، بلاء حسنا. وقد عاد جيش المسلمين الى مرو عن طريق ترمذ ومن ثم بلخ (الطبري، ج ٦، ص ٤٣٦ – ٤٣٧. بطاينه، ص ٢٢٤).

في عام ٨٩ وصلت أوامر من الحجاج بن يوسف لقتيبة تأمره بغزو بخارى التي كانت من أعظم مدن ما وراء النهر، فامتثل قتيبة للأوامر فعبر نهر جيحون عند زم فحاربه أهل الصغد وسكان كِس ونسف وانتصر عليهم الا أنه لم يتمكن من فتح

مدينة بخارى نفسها فكر راجعا وأعلم الحجاج بذلك، فلامه الحجاج على ذلك وطلب منه أن يصور له المدينة (أي أن يرسم له خارطتها) ومحيطها ففعل قتيبة ذلك، فأعد الحجاج خطة الهجوم على المدينة وأمر قتيبة بتنفيذها (الطبري، ج ٦، ص ٤٣٩ – ٤٤٠. ابن خلدون، ج ٣، ص ٥٩ - ٦٠). و ذه المناسبة لا بد من ذكر أنه ربما تكون هذه الخارطة التي لم تصلنا نسخة عنها اقدم وأول خارطة في التاريخ الإسلامي، وعلى ما يظهر أنا كانت خارطة جيدة ومفصلة لأنا أعطت الحجاج صورة جيدة عن الوضع في المنطقة مما فسح له ا ال لإعداد خطة محكمة لفتح المدينة.

في عام ٩٠ امتثل قتيبة لأوامر الحجاج وهاجم مدينة بخارى فاستنجد ملكها بالصغد والترك الذين أنجدوه، الا أن قتيبة انتصر عليهم وفتح المدينة. وعلى إثر نجاحه الكبير هذا طلب طَرخون ملك الصغد الصلح فوافق قتيبة على ذلك. وكان نيزك قد شارك في هذه المعارك الى جانب قتيبة. وبعد عودة قتيبة ومعه نيزك الى خراسان ذهب كل منهما الى مدينته، فأعلن نيزك الثورة على قتيبة لأنه راعه فتوحات قتيبة في المنطقة فخاف أن يستفحل أمره وأن يحكم جميع البلاد بشكل مباشر وليس بواسطة الملوك المحليين. ومما شجعه على الثورة اعتقاده بأن قتيبة سيقبل منه اذا لم تنجح ثورته الصلح لأنه وجده دائم الإستعداد لقبول الصلح حتى ممن يثورون عليه، كما فعل مع ملك الصغد. لقد أورد الطبري على لسانه قوله: "لأصحابه وخاصته: متهم أنا مع هذا، ولست آمنه، وذلك أن العربي بم لة الكلب، إذا ضربته نبح، وإذا أطعمته بصبص واتبعك، وإذا غزوته ثم أعطيته شيئا رضي، ونسى ما صنعت به، وقد قاتله طَرخون تكرارا، فلما أعطاه فدية قبلها ورضي، وهو شديد السطوة فاجر" (الطبري، ج ٦، ص ٤٤٥. ابن خلدون، ج ٣، ص ٦١).

أقنع نيزك ملوك الطالقان والفارياب والجوزجان وبلخ (كلها من مقاطعة طُخارستان التابعة لخراسان) بإعلان الثورة والعصيان على قتيبة والمسلمين فوافقوه على رأيه واتفقوا على غزوه في فصل الربيع، فبادر نيزك الى خلع ملك طُخارستان جبغويه الذي كان مواليا لقتيبة وعزله ونصب نفسه مكانه بحجة أنه ملك ضعيف، وطرد محمد بن سليم الناصح عامل قتيبة على المنطقة وتحصن في شعب خلم الموصوف بضيقه وصعوبة عبوره. فسار قتيبة الى الطالقان ففتحها عنوة وقتل عددا كبيرا جدا من أهلها (ابن خلدون، ج ٣، ص ٦١ - ٦٢) .

كانت سنة ٩١ سنة حافلة في الأعمال العسكرية التي قام ا قتيبة، لأن التمرد الذي بدأه نيزك لم يقتصر على مناطق طُخارستان في خراسان بل امتد الى ما وراء النهر. فجمع قتيبة عددا كبيرا من الجنود من مدن خراسان وسار م الى المدن التي أعلنت التمرد فاستسلمت أغلبها دون قتال فولى عليها حكاما عربا جدد. المعضلة العسكرية الأولى التي واجهها في هذه الحملة كانت كيفية عبوره شعب خلم حيث تبين له أنه من شبه المستحيل أن يعبر من هذا الشعب للوصول الى القلعة التي كان يتحصن ا نيزك. علما أن القلعة نفسها كانت بالغة الإرتفاع والحصانة حتى أنم أطلقوا عليها اسم قلعة الشمس لإرتفاعها. ولم يتقدم جيش قتيبة الى القلعة الا بعدما دله أحد الحكام المحليين على طريق سري، فهرب نيزك الى الشمال وعبر نر فرغانة وتبعه قتيبة حتى وصل الى مكان يدعى الكرز فحصره هناك حوالي الشهرين عانى خلالها الجوع والمرض فوافق أن يستسلم لقتيبة بعد أن منحه الأمان (ابن كثير، ج ٩، ص ٨٢. ابن خلدون، ج ٣، ص ٦٢). وبسبب غضبه من نيزك طلب قتيبة من الحجاج أن يسمح له بقتله رغم الأمان، فسمح له الحجاج بذلك فقتله وصلبه. وفي نفس السنة هاجم قتيبة مدن شومان وكش ونسف لأن ملوكها أعلنوا التمرد وطردوا منها عمالها العرب الذين عينهم قتيبة، ففتحها جميعا عنوة. وقبل أن يعود الى مرو ارسل اخاه عبد الرحمن الى طَرخون ملك الصغد ليقبض منه

الفدية التي تم الإتفاق عليها سابقا فقبضها والتحق بأخيه في مرو. أما أهل الصغد فثاروا ضد طرخون ملكهم المسن وا موه بأنه صنيعة العرب المسلمين وانه قد ارتاح لدفع الجزية فعزلوه وعينوا مكانه غوزاك (وفي بعض المصادر ذكر اسمه غورك)، فلم يحتمل طرخون ذلك فقرر الانتحار (ابن خلدون، ج ٣، ص ٦١-٦٢) .

تعتبر سنة ٩٢ سنة سلام وهدوء نسبي حيث اقتصر نشاط قتيبة في هذه السنة على غزو منطقة سجستان (الواقعة الى الجنوب من خراسان وتقع الآن في جنوب أفغانستان) دف اخضاع رتبيل الذي أعلن عصيانه، فطلب رتبيل الصلح فصالحه قتيبة واستعمل عليهم عبد ربه بن عبدالله بن عمير الليثي وعاد الى مرو (ابن الأثير، ج ٤، ص ١٢٥. ابن كثير، ج ٩، ص٨٤) .

بالعكس من سنة ٩٢ فقد شهدت سنة ٩٣ أعظم فتوحات قتيبة على الإطلاق حيث فتح منطقة خوارزم الواقعة الى الشمال من خراسان والتي تحد بحيرة خوارزم (بحر اورال) ومدينة سمرقند التي كانت أعظم مدن الصغد وما وراء النهر. ففيما يتعلق بفتح خوارزم فسبب فتحها كان أن ملكها خوارزم شاه قد كتب لقتيبة يستقدمه ليسلمه بلاده وذلك نكاية بأخيه الأصغر الذي غلبه على أمره وعاث فسادا في الأرض، وبعث لقتيبة بثلاث مفاتيح من ذهب تمثل مفاتيح اهم ثلاث مدن في خوارزم ليقنعه بصدق نواياه. استغل قتيبة هذه الظروف فهاجم خوارزم وفتحها فسلم لخوارزم شاه أخاه الأصغر حسب الإتفاق، فقام الملك بقتل أخيه واستصفى ممتلكاته وقدمها هدية لقتيبة. وفيما يتعلق بفتح سمرقند فقد قرر قتيبة مباغتة المدينة وأهلها، بعد أن كان قد فتح خوارزم وأعتقد اهل الصغد بأنه سيكتفي في هذه السنة ذا الفتح. دارت معارك طاحنة بين قتيبة وأهل سمرقند وحلفائهم اسفرت عن نصر كبير لقتيبة الذي حصل على غنائم عظيمة من المدينة

(بطاينة، ص ٢٢٦. ابن خلدون، ج ٣، ص ٦٢ – ٦٣، Encyclopaedia of Islam. 2 ed. vol 5. pp. 542.). سوف يتم الحديث عن فتح مدينة سمرقند بتفصيل اكبر لاحقا من هذه الدراسة وذلك لأهمية هذا الموضوع .

في سنة ٩٤ وجه قتيبة اهتمامه الى فتح مناطق جديدة لم يغزوها من قبل بهدف الفتح وهي مناطق فرغانة والشاش (طشقند). وقد استعان بهذه المهمة بحوالي عشرين الف جندي من مقاتلي خوارزم والصغد، وقد وجههم الى الشاش عبر نهر سيحون، أما هو فتوجه الى خجندة الواقعة على الضفة الجنوبية من نفس النهر وفتحها بعد عناء كبير. ومن ثم حارب بمساعدة جنوده الذين وجههم الى الشاش مدينة قاشان الواقعة الى الشمال من نهر سيحون وانتصر عليها وفتحها وحرق جزء منها ثم عاد الى مرو. (بطاينة، ص Encyclopaedia of Islam. 2 ed. Vol. ٢٢٦5, p. 542.). ولكن على ما يظهر أن هذه الحملة لم تحقق جميع أهدافها خصوصا أنها لم تنجح بفتح مدينة الشاش.

في سنة ٩٥ أمد الحجاج بن يوسف قتيبة بجند جدد ، لكي يفتح بهم مدينة الشاش وغيرها من مدن فرغانة وبلاد ما وراء سيحون ، لكنه عندما كان محاصرا مدينة الشاش وصله خبر موت قائده الأعلى الحجاج بن يوسف ، فرفع الحاصر وفرق جنوده في مدن بخارى وكش ونسف وغيرها ، وعاد إلى مرو . وفي نفس السنة وصله كتاب من الخليفة الوليد بن عبد الملك ، أكّد له فيه على إبقائه في منصبه ، ومدح جهوده الحربية . (ابن خلدون ، ج٣ ، ص٦٥ – ٦٦ . ابن الأثير ، ج٤ ، ص١٣١ - ١٣٢) .

في سنة ٩٦ جدد قتيبة نشاطه العسكري وبدأ بمشروع جديد لم يسبق له أن طرق بابه ألا وهو غزو الصين. فقد هاجم مدينة كاشغر التي تعتبر أولى المدن الصينية من جهة الغرب وفتحها. سيتم الحديث عن هذا الفتح لاحقا بشئ من التفصيل لأهمية

الموضوع. في هذه الأثناء وصله خبر موت الخليفة الوليد بن عبد الملك وتعيين سليمان بن عبد الملك مكانه، الأمر الذي أقلقه لأن الخليفة الجديد كان يحقد عليه وعلى قائده السابق الحجاج بن يوسف. فأعلن قتيبة عصيانه وخلعه الخليفة الجديد فثار جنده عليه عندما كان ما زال في فرغانة وقتلوه (ابن خلدون، ج ٣، ص ٦٧ - ٦٨) .

**فتح سمرقند عام ٩٣ :**

لقد ذكر أعلاه أن قتيبة فتح مدينة سمرقند عام ٩٣ بعد فتحه خوارزم. والآن نعود لهذا الموضوع بشيئ من التفصيل لأهميته. وقد ذكر أبو حنيفة الدينوري رواية أخرى في فتح المدينة أقرب الى الخيال منها الى التاريخ والواقع، وتذكرنا هذه الرواية بفتح مدينة طروادة في العصور القديمة. لقد أشارت الرواية الى أن قتيبة حاصر المدينة لفترة طويلة ولم يقدر على فتحها فأخبره دهقانا ويدعى صول بأنه سوف لن يتمكن من فتحها حتى لو حاصرها طيلة حياته لأنه حسب الكتب التي بين أيدهم سوف لن يفتحها الا شخص اسمه بالان، فاحتال قتيبة عليه وأعلمه بأنه إذا كان الوضع كالذي ذكر فإنه يريد أن يرفع الحصار عنها ويتجه الى الصغنيان الا أنه لا يقدر على حمل كل أمتعته معه، فرجاه أن يحتفظ بالصناديق الزائدة من أمتعته حتى يعود من مهاجمة الصغنيان، هذا إذا تمكن من العودة، فوافق صول على ذلك. أما قتيبة فقد أدخل جنودا مسلحين الى هذه الصناديق وجعل مفاتيحها من داخلها لكي يتمكن الجنود من فتحها وقت الحاجة. وبعد "مغادرة" جيش قتيبة المكان، خرج صول الى خارج المدينة وأدخل الصناديق الى داخلها. وأثناء الليل خرج الجنود الذين كانوا في الصناديق وقتلوا الحرس الذين كانوا على أبواب المدينة وفتحوها، فعاد قتيبة الى المنطقة ودخل المدينة وفتحها. (أبو حنيفة الدينوري، ص ١٢٣) .

هناك روايات ومصادر تشير الى أن قتيبة فتح سمرقند غدرا لأنا كانت قد صالحت العرب والمسلمين على شروط وجزية هينة منذ فترة طويلة. وذكر أن سبب الفتح ا دد هذا أن قتيبة اعتبر ما كانت تدفعه المدينة حسب الإتفاقية القديمة قليلا جدا فأراد فتحها عنوة لكي يفرض عليها الشروط والمبالغ المالية التي يريدها. وبالفعل فإن فتح قتيبة الجديد لهذه المدينة اختلف عن فتحه للمدن الأخرى حيث فرض عليها شروطا صعبة للغاية. فتذكر المصادر أنه "صالحهم من الغد على ألفي ألف ومائتي ألف (٢٢٠٠٠٠٠) في كل عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس ليس فيهم صبي أو شيخ ولا عيب، على أن يخلوا المدينة لقتيبة فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيبني له فيه مسجد فيدخل ويصلي، ويوضع له فيها منبرا فيخطب، ويتغذى ويخرج". وبالفعل فقد أخلى السكان المدينة له وبنوا له مسجدا ووضعوا به منبرا فدخلها في أربعة آلاف جندي منتخبين فتغذى وصلى، ولكنه لم يخرج من المدينة بل أرسل الى أهلها يقول لهم "من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذه فإني لست خارجا منها ... ولست آخذ منكم أكثر مما صالحتكم عليه، غير أن الجند يقيمون ا". وأخذ منهم معابدهم بما تحويه من حلي ومجوهرات وحرق "أصنامهم". (الطبري، ج ٦، ص ٤٧٥. Encyclopaedia of Islam. 2 ed. vol. 5, p. 542 – 543.).

عند استخلاف عمر بن عبد العزيز عام ٩٩، وبعد سماع اهل سمرقند عن عدله وانصافه للمظلوم، أرسلوا إليه وفدا ينوب عنهم ليعرضوا قضيتهم أمامه. وقد استمع الخليفة لظلامتهم وأكدوا له بأن قتيبة قد فتح مدينتهم غدرا وفرض عليهم جزية باهظة بدون وجه حق. فكتب الخليفة الى عامله على سمرقند يأمره أن ينظر في الأمر وأن يحيل القضية الى قاضي المدينة. استمع القاضي الى الطرفين، وقضى بأن قتيبة قد فتح سمرقند ظلما وعدوانا وقضى بوجوب خروج المسلمين وحاميتهم من المدينة وإعاد ا لأصحا ا سكان المدينة، فوافق الخليفة على الحكم وأصدر أمرا

بضرورة إخلاء المدينة. وبينما كان الجيش والمسلمين منهمكين في بيع ممتلكا م وإعداد أنفسهم لمغادرة المدينة، أيقن سكان المدينة مدى عدالة القضاء الإسلامي فتراجعوا عن مطالبهم السابقة وطلبوا من الجيش البقاء في المدينة (أبو خليل، ص ٢٩٥ – ٢٩٨. بطاينة، ص ٢٢٩) .

هناك روايات أخرى تشير الى أن قتيبة قد فتح سمرقند مجددا لأن أهلها وملكهم الجديد غوزاك قد أعلن العصيان. فسياق هذه الرواية يشير الى أن ا سر بن مزاحم السلمي اقترح على قتيبة أن يفاجئ الصغديين بعد انتهائه من فتح خوارزم قائلا له: "إن أردت الصغد من الدهر فالآن فا نم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا" وذلك لاعتقادهم بأنه سيكتفي هذه السنة بفتح خوارزم، فأعجبت هذه الفكرة قتيبة وتظاهر بأنه عائد الى مرو ومن ثم غير اتجاه جيشه الى الصغد. وقد خطب بجيشه قائلا: "ان الصغد شاغرة برجلها وقد نقضوا العهد الذي بيننا وصنعوا ما بلغكم واني أرجو أن يكون خوارزم والصغد كقريظة والنظير". وقد قدم بجيشه المكون من العرب والخوارزميين والبخاريين وفرض حصارا على المدينة استمر لأكثر من شهر. في تلك الفترة استنجد غوزاك بالفرغانيين وأهل الشاش الذين أنجدوه بافضل جنود لديهم، فأراد هؤلاء أن ينصبوا كمينا لجند قتيبة ألا أن قتيبة عرف بخطتهم فنصب لهم كمينا فوقعوا فيه فأبادهم عن بكرة أبيهم. وفي أعقاب هذه المعركة بدأ اليأس يدب في قلوب أهل سمرقند فاجتاحتهم قوات قتيبة فاستسلموا (ابن الأثير، ج ٤، ص ١٢٦ – ١٢٨) .

في الواقع ان المصادر التي حاولت تبرير اعادة فتح سمرقند بحجة أ ا انتفضت ضد العرب والمسلمين وأعلنت العصيان لم تخف كليا الروايات التي أشارت الى غدر قتيبة. فالطبري يذكر في إحدى الروايات "أن العجم ليعيرون قتيبة الغدر، إنه غدر بخوارزم وسمرقند". ويذكر رواية أخرى على لسان الشخص الذي بعثه قتيبة الى

الحجاج بن يوسف يعلمه بالفتح، وقد بعثه الحجاج بدوره الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليعلمه بالأخبار السارة. ويقول هذا الشخص "فقدمتها (أي دمشق) فدخلت مسجدها فجلست قبل طلوع الشمس والى جنبي رجل ضرير، فسألته عن شيئ من أمر الشأم، فقال: إنك لغريب، قلت: أجل، قال: من أي بلد أنت؟ قلت: من خراسان. قال: ما أقدمك؟ فأخبرته فقال: والذي بعث محمدا بالحق ما افتتحتموها الا غدرا، وإنكم يا أهل خراسان للذين تسلبون بني أمية ملكهم وتنقضون دمشق حجرا حجرا" (الطبري، ج ٦، ص ٤٧٦، ٤٧٩).

**فتح كاشغر :**

لقد ذكر أعلاه أن قتيبة فتح كاشغر عام ٩٦، والآن سنذكر بشيئ من التفصيل هذا الفتح لأسباب عديدة أهمها أن هذه المدينة تعتبر أول المدن الصينية من جهة الغرب (تقع كاشغر الآن ضمن دولة الصين على بعد حوالي مائتين كيلومتر من حدودها مع كرغيسستان)، وتعتبر معبرا مهما للطامعين بغزو الصين من هذه الجهة لأنا تحتل مكانا استراتيجيا حيث تقع خلف جبال شاهقة بالنسبة للفاتحين العرب وهي على الطرف الغربي من منطقة صحراوية منبسطة تمتد شرقا نحو وسط الصين. الى جانب ذلك فإن هذا الفتح قد حدث في السنة الأخيرة من ولاية قتيبة على خراسان، الأمر الذي يدعونا للإعتقاد بأنه لو قدر لقتيبة أن يستمر في ولايته لربما اتخذ من هذه المدينة مركزا ورأس حربة لتغلغل العرب والمسلمين في الصين.

تتحدث المصادر العربية الإسلامية عن فتح قتيبة لكاشغر ولكنها لا تزودنا بمعلومات وافية عن عملية الفتح نفسها فيما إذا كانت عنوة أم صلحا. كل الذي تذكره المصادر يتلخص بأن قتيبة غزا كاشغر وحصل على سبي وغنائم وفرض عليها الجزية (ابن خلدون، ج ٣، ص ٦٧. بطاينة، ص ٢٢٧)، ولكنها لا تذكر عدد جنوده، وفيما إذا التقت قواته القوات الصينية أم حاربت حامية محلية. ولا

نعرف أيضا فيما إذا دخل قتيبة المدينة وعين عليها واليا عربيا من قبله، وفيما إذا ترك فيها حامية عربية – إسلامية .

لقد أبدت جميع المصادر اهتماما كبيرا في أخبار البعثة التي بعثها قتيبة الى ملك الصين بناءا على طلب الملك الصيني نفسه. فالمصادر تذكر بأن ملك الصين عندما علم بوجود العرب على أرضه طلب من قائدهم أن يرسل له بعثة لكي يتعرف منهم على المسلمين ودينهم وعلى أهداف حملتهم. فاختار قتيبة لهذه المهمة عشرة أو اثني عشر رجلا من خيرة جنوده ممن يتصفون بالذكاء والفطنة والدراية والسياسة والقوة الجسدية وحسن المنظر، وعين عليهم هبيرة المشمرج الكلابي رئيسا. وتصف المصادر هبيرة بأنه كان مفوها، أي أنه كان حسن الحديث. وقد أوصاهم قتيبة بإخبار الملك بأن قائدهم قد حلف بأنه سوف لن ينصرف عن مكانه حتى يطأ بلاده ويختم ملوكه ويجبي خراج بلاده. فاستقبلهم الملك استقبالا يليق م، ومن ثم دعاهم الى مجلسه، فلبسوا ثيابا بيضا تحتها الغلائل ولبسوا النعال والأردية وتعطروا وجلسوا في مجلس الملك ولم يكلمهم لا الملك ولا أي أحد من جلسائه، فخرجوا من ا لس. فسأل الملك جلساءه عنهم فقالوا: "رأينا قوما ما هم الا نساء". ودعاهم الملك في اليوم الثاني فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف ودخلوا عليه، فلم يكلمهم، وطُلب منهم أن يعودا في الغد، فسأل جلساءه عنهم، فأجابوه بأن هيأ م هذه أشبه يئة الرجال من هيأ م السابقة. وفي اليوم الثالث شدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض وتقلدوا السيوف واخذوا الرماح وتنكبوا القسي وركبوا خيولهم فلما وصلوا مجلسه ركزوا رماحهم وهموا بالدخول وهم مشمرين، فطُلب منهم العودة من حيث أتوا لأن الرعب قد دب في قلوب الصينيين، على حد تعبير المصادر العربية الإسلامية (ابن خلدون، ج ٣، ص ٦٧. ابن الأثير، ج ٩، ص ١٣٥- ١٣٦) .

في اليوم الرابع طلب الملك الصيني منهم أن يبعثوا له بزعيمهم فبعثوا بهبيرة المشمرج، فسأله الملك عن تفسير ما قاموا به من تغيير وتبديل لهيأتهم في الأيام الثلاثة السابقة، فقال هبيرة: "أما زينا الأول فلباسنا في أهالينا ... وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا وإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا". فأعجب الملك بهذا التفسير والتدبير وأمرهم بالعودة الى قائدهم واعلامه بضرورة انسحابه من البلاد الصينية وعودته الى بلاده لأن الملك عرف قلة أتباعه. وهددهم بأنه إن لم يفعل ذلك فإنه سوف يبعث ضدهم جيشا كبيرا يهلكهم. فاعترض هبيرة على ادعائه بأن عدد اتباعه قليل وقال له: "كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون" ؟ واخبره بأن قائدهم (قتيبة) قد حلف بأنه لن ينصرف من مكانه حتى يطأ بلادكم ويختم على ملوككم وتعطوا الجزية. فقال الملك بأنه يخرجه من قسمه بحيث يبعث له بتراب من تراب الصين فيطؤه ويبعث معهم بأربعة غلمان من أبناء الملوك فيختمهم وأن يبعث له معهم بهدية (كأنها الجزية). ومن ثم أحسن الملك لأعضاء الوفد وأمر لهم بجوائز وسيرهم الى بلادهم. وقد قبل قتيبة بالجزية وختم على رقاب الغلمان ووطأ تراب الصين ومن ثم عاد الى بلاده (الطبري، ج ٦، ص ٥٠١ - ٥٠٣) .

**سياسة قتيبة العسكرية :**

لكي يتمكن قتيبة من القيام بحملة الفتوحات الكبيرة التي أوكلها له الحجاج بن يوسف كان لا بد له أن يقود جيشا كبيرا، لهذا السبب كان الحجاج يزوده بالجنود الجدد كلما سنحت له الفرصة بذلك، علما أن الحجاج كان أيضا مسؤولا عن جبهة السند وكان يزود قائدها محمد بن القاسم الثقفي بعدد كبير من الجنود.

استعرضت المصادر العربية تركيبة الجيش الذي تركه قتيبة وراءه في خراسان بعد مقتله عام ٩٦، وتبين من هذا الاستعراض أنه كان يتكون من حوالي أربع وخمسين

ألف جندي. وكان هذا الجيش مكونا من: تسعة الآف جندي من اهل البصرة من أهل العالية، وسبعة آلاف من قبيلة بكر، وعشرة آلاف من قبيلة تميم وكان قائدهم وكيع بن أبي سود، الذي قاد الحملة التي أطاحت بقتيبة وقتلته فيما بعد، واستلم قيادة الجيش والولاية بعد قتيبة، وأربعة الآف جندي من قبيلة عبد القيس، وعشرة الآف من قبيلة الأزد، وسبعة الآف من أهل الكوفة، وسبعة الآف من الموالي وكان يقودهم حيان النبطي (الطبري، ج ٦، ص ٥١٢. ابن خلدون، ج ٣، ص٦٩) . ويتبين من هذا العرض السريع لتركيبة جيش خراسان (أو جيش قتيبة) أنه لم يتكون فقط من الجنود العرب بل ضم أيضا جنودا من السكان المحليين الذين أشارت اليهم المصادر على أنم موالي.

لم يعتمد قتيبة في فتوحاته على هذا الجيش "النظامي" فقط بل كان يجند أيضا أعدادا كبيرة أخرى من السكان المحليين الذين تم فتح بلادهم، بل انه في كثير من الحالات كان يفرض عليهم في شروط الصلح أن يزودوه بعدد محدد من الجنود إذا كانت هناك حاجة لذلك. فحسب ابن الأثير، تضمنت شروط الصلح مع خوارزم بندا يشير الى ضرورة تزويدهم اياه بمئة ألف مقاتل، وقيل أن الشروط التي فرضت على سمرقند عام ٩٣ تضمنت بندا يشير الى وجوب تزويدهم اياه بعشرين ألف فارس، وحسب رواية أخرى فإن هذا العدد كان ثلاثين ألف فارس. وهناك معلومات كثيرة تشير الى أن قتيبة عندما كان يخرج في حملاته كان يفرض على المناطق المفتوحة أن يزودوه بأعداد كبيرة من المقاتلين المحليين. فعندما قاد حملته لفتح الشاش وفرغانة عام ٩٤ فرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين الف مقاتل، وقد ابلى هؤلاء بلاء حسنا في مهاجمة الشاش. ونجد جنود وقادة محليين في تركيبة جيوشه في غالبية حملاته إن لم يكن في جميعها. ومن أشهر القادة المحليين الذين قادوا جيوشهم المحلية وحاربوا الى جانبه نيزك ملك باذغيس الذي أعلن فيما بعد عصيانه فحاربه قتيبة وقضى على حركته عام ٩١ (ابن الأثير، ج ٤،

ص ١٠٥، ١٠٩، ١١٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٣١. الطبري، ج ٦، ص ٤٧٥). وإن ما أورده الطبري من معلومات متعلقة بهذا الشأن، عندما تحدث عن فتح سمرقند، تشير الى أهمية المقاتلين المحليين في حملات قتيبة. فأثناء حصار المدينة أرسل ملكها غوزاك الى قتيبة يعاتبه ويقول له: "إنما تقاتلني بإخوتي واهل بيتي من العجم، فأخرج اليّ العرب" فغضب قتيبة وطلب من عرفاء جيشه أن يعرضوا أمامه الجنود العرب واختار من بينهم جنودا بواسل وسلحهم بأفضل الأسلحة وأركبهم أفضل الخيل وهاجم بهم المدينة، ورماهابالمنجنيق حتى استسلمت (ابن كثير، ج ٩، ص ٨٥).

لقد جاءت تركيبة جيش قتيبة تركيبة مبنية على أساس قبلي، مثل كل الجيوش العربية الإسلامية في ذلك الوقت، فكانت فرق الجيش تتكون من وحدات قبلية. فعند الحديث عن جيش قتيبة أعلاه تبين أنه يتكون من أبناء قبائل مختلفة. وإذا لم تشر المعلومات الواردة أعلاه الى التركيبة القبلية لوحدات الجيش بشكل صريح فإن المعلومات التي وصفت سير المعارك المختلفة أشارت الى هذا الأمر. ففي الحملة التي فتح بها قتيبة مدينة بخارى عام ٩٠ كان بنو الأزد على مقدمة الجيش وقد ردهم الأتراك والصغديين على أعقابهم وكادوا أن يقضوا عليهم لولا أن عامة جيش المسلمين قد أغلق الطريق على جيش الأترك الذين توغلوا في صفوف العرب. وفي نفس الحملة تشير المصادر الى أنه عندما تمركز الأتراك في مكان استراتيجي أراد قتيبة أن يزيحهم عنه فطلب من بني تميم أن يفعلوا ذلك وقد نجحوا بمهمتهم بعد مشقة كبيرة (ابن الأثير، ج ٤، ص ١١٣. ابن خلدون، ج ٣، ص ٦١).

هناك معلومات أشارت الى وجود نساء مسلمات، على الأغلب عربيات من بني الأزد، في ساحة المعركة التي دارت بالقرب من بخارى عام ٩٠. ولكننا لا نعرف على وجه الدقة ماذا كن يفعلن في أرض المعركة. فهل كن يساعدن الجنود في بعض الأعمال العسكرية أم كن يضمدن الجراح أم كن يساعدن في إعداد الطعام؟

كل الذي ذكرته المصادر ـذا الشأن أنه عندما دحر الأتراك الجنود الأزديين في هذه المعركة تقدم الفرسان الأتراك حتى وصلوا لمكان تواجد النساء الآتي ضربن وجوه الخيل وبكين (الطبري، ج ٦، ص ٤٤٣). كما أن المصادر لم تزودنا بمعلومات أخرى عن مشاركة أو وجود نساء في معارك أخرى.

ومن اللآفت للإنتباه مدى اعتماد قتيبة على اخوته واقربائه في قيادة الجيش وإدارة البلاد المفتوحة، حيث نراه يعينهم ويأمرهم بقيادة الجيوش في كل الحملات المهمة والصعبة التي خاضها، وقد اثبتوا بأـنم من أفضل القادة ، حيث انتصروا تقريبا في جميع المعارك التي خاضوها. وفيما يتعلق بعدد اخوته وأقاربه الذين كانوا معه تشير تلك المصادر الى أن عدد أقاربه الذين قتلوا معه عام ٩٦ كان أحد عشر شخصا. فقد قتل معه في تلك الحادثة خمسة من اخوته وهم: عبدالرحمن وعبدالله وصالح وحصين وعبد الكريم أما عمر (وفي بعض المصادر عمرو) فقد نجا من ا ـزرة بسبب مساعدة أخواله له على الهرب. وقتل في نفس ا ـزرة كثير ابن قتيبة (ابن كثير، ج ٩، ص ٨٤ - ٨٦). وكان الأخوين عبد الرحمن وصالح من أفضل القادة بين الإخوة لذلك اعتمد قتيبة عليهم في كثير من المعارك والحملات، وقد ابلى عبد الرحمن بلاءا حسنا على وجه الخصوص في ملاحقة نيزك بعد اعلانه التمرد وفي الحملة التي هدفت الى فتح خوارزم. أما صالح فقد غزا كاشان وأخشيكت في فرغانة عام ٨٦ بعد أن عاد قتيبة نفسه لمرو. وقد كانت هذه أول المحاولات العربية الإسلامية لفتح هذه المنطقة النائية حتى ذلك التاريخ، وقد صادف نجاحا كبيرا. كما أن قتيبة أرسله رسولا الى نيزك ليقنعه بتسليم نفسه، ونجده أيضا يلعب دورا مهما في فتح سمرقند (ابن الأثير، ج ٤، ص ١٠٥، ١٠٩، ١١٤، ١١٦ – ١١٨، ١٢٦) .

لقد أبدى قتيبة اهتماما كبيرا بطلائع الجيش، أي ا موعات الصغيرة من الجيش التي كان يرسلها أمام الجيش لإستكشاف الطرق ولكي يجمع معلومات عن الأعداء. وربما هذا يفسر لماذا قلما وقع جيشه في كمين نصبه أعداءه له، في حين كثيرا ما نصب الكمائن لأعدائه وفي غالب الأحيان كان ينجح في كمائنه. وبالنسبة لهذه الطلائع فكان قتيبة يعد لها أفضل الخيل والهجين قبل موسم الحملات العسكري بفترة طويلة وكان يربيها ويسوسها بأفضل الطرق ويسمنها حتى قبل فترة الحملات بفترة وجيزة، ومن ثم كان بقوم بتقليل كمية الطعام المقدمة لها حتى تصبح خفيفة الوزن والحركة وقادرة على قطع الأنهار سباحة. كما أنه كان يختار لهذه المهمة أفضل الفرسان وأشراف الناس ويبعث معهم أدلاء محليين من العجم ليدلوهم على الطرق. وكان "إذا بعث طليعة أمر بلوح فنقش ثم شقه بنصفين وجعل شقه عنده ويعطي نصفه الطليعة ويأمرهم أن يدفنوه في موضع يصفه لهم من شجرة أو مخاضة أو غيرهما ثم يبعث بعد الطليعة من يستخرجه ليعلم أصدقت الطليعة أم لا" (ابن الأثير، ج ٤، ص ١٣٧) .

عند فتح قتيبة البلاد، استعان بالكوادر الإدارية المحلية في إدارة شؤون تلك البلاد، الأمر الذي ساعد على تقبل السكان المحليين الحكم العربي الإسلامي. ففي جميع الحالات عندما تحدثت المصادر عن تعيين إدارة عربية للمدن المفتوحة ذكرت أن قتيبة كان يبقى على الدهاقين والحكام والملوك السابقين في مناصبهم، ولكنه في نفس الوقت كان يعين الى جانبهم شخصين عربيين من خيرة قادة جيشه، أحدهما كان مسؤولا عن الأمور الحربية والآخر كان مسؤولا عن الأمور المالية. وكمثال على تعيينه للحكام العرب نذكر تعيينه عام ٩٣ لإياس بن عبد الله على الأمور العسكرية في خوارزم وعبيد الله بن أبي عبيد الله الذي كان مولى مسلم بن قتيبة على أمور الولاية المالية. وعندما ثبت لقتيبة بأن إياس لم يتمكن من فرض الهيبة المطلوبة والإدارة الحازمة أقاله وعين أخاه عبد الله بن مسلم بدلا منه. وغالبا ما

كان الحاكم أو الملك المحلي الذي يثور على السلطة العربية كان يقوم إما بقتل أو بطرد الموظفين العرب، وهذا ما فعله أهل طُخارستان عام ٩٠ وملك شومان عام ٩١. وحتى عندما كان الحاكم أو الملك المحلي يثور على السلطة العربية الإسلامية ومن ثم يتراجع عن عصيانه بعد تجريد قتيبة الجيش ضده، كان قتيبة يبقيه في منصبه ويعين الى جانبه موظفين عرب، وهذا ما حدث مع رتبيل ملك سجستان عام ٩٢ عندما أبقاه قتيبة في منصبه وعين الى جانبه عبد ربه بن عبد الله الليثي (ابن الأثير، ج ٤، ص ١١٤، ١١٨، ١٢٥، ١٢٨. ابن خلدون، ج ٣، ص ٦٢ - ٦٣).

كان قتيبة في غالب الأحيان يميل لعقد الصلح مع أعدائه ولم يكن يلجأ للقتال الا عندما لم يتمكن من تحقيق أهدافه بالطرق "السلمية". ففي كثير من الحالات خرج قتيبة على رأس جيوش كبيرة في حملات ضخمة الا أنه لم يخض غمار معارك كثيرة.

في عام ٨٦ قبل قتيبة اقتراح الصلح من ملوك الصغنيان وأخرون وشومان وباذغيس وبلخ، حتى أنه لم يسمح لقواته بدخول باذغيس بعد اتمام عملية الصلح. وفيما يتعلق ببلخ فكان قد قاتلها وأسر وسبى من سكانا، الا أنه أعاد السبي بعد أن اقترح ملكها الصلح. وفي سنة ٨٧ صالح ملك بيكند، وفي سنة ٨٨ صالح نومشكت ورامثنة، وفي سنة ٩١ صالح الفارياب والجوزجان وبلخ وقد ذكرت المصادر أنه لم يبق في بلخ حتى يوما واحدا رفقا ا وبسكانا. وكان قتيبة يقبل بالصلح مع ملوك هذه المدن رغم أنم كانوا يعلنون التمرد ضده. وفعل الشئ نفسه مع رتبيل الذي ثار ضد الوجود العربي الإسلامي في سجستان عام ٩٢. ومما يؤكد أيضا ميله للصلح أنه عندما "ثار" ضده غوزاك في سمرقند وقاتله هدم قتيبة جزء من سور المدينة وأخذ جنوده مواقعهم على ذلك الجزء وأخذوا يعدوا العدة للتدفق الى قلب المدينة، طلب غوزاك الصلح فوافق قتيبة على ذلك رغم امتعاض كثير من

جنوده. فاالطبري يقول: "وقال قتيبة: أِلحوا عليها حتى تعبروا الثلمة، فقاتلوهم حتى صاروا على ثُلمة المدينة، ورماهم السغد بالنشاب، فوضعوا ترستهم، فكان الرجل يضع ترسه على عينه، ثم يحمل حتى صاروا على الثلمة، فقالوا له: انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غدا ... فانصرفوا وصالحهم من الغد" (الطبري، ج ٦، ص ٤٧٥. ابن الأثير، ج ٤، ص ١٢٧، ١٠٥ – ١٠٩، ١٢٥). ولا بد أن هذه السياسة المتسامحة التي اتبعها قتيبة قد حقنت دماء آلاف الناس من كلا الطرفين وعلى وجه الخصوص من طرف السكان المحليين، كما أنها أثرت بقلوب تلك الشعوب وساعدت على قبولهم الدين الإسلامي وترسيخ الحكم العربي بالمنطقة .

وتشير المصادر الى أن قتيبة عندما كان يصالح ملك معين أو يفتح مدينة معينة كان يأخذ رهائن من ذلك الملك أو تلك المدينة، وفي بعض الحالات كان يعطي من طرفه رهائن وذلك لكي يضمن كل جانب بأن الجانب الآخر سيقوم بتنفيذ ما تم الإتفاق عليه. وفي حال لم ينفذ أحد الطرفين شروط الإتفاق كان الآخر يقوم بقتل الرهائن الذين بحوزته. وللتاكيد على ضرورة الالتزام بتنفيذ الاتفاقيات كان يتم اختيار الرهائن من بين أقرب المقربين على القادة. ففي عام ٩١ أعلن ملك الجوزجان الثورة على قتيبة، وعندما عزم قتيبة على محاربة المدينة هرب ملكها الى الجبال ولكنه أرسل فيما بعد الى قتيبة يطلب منه الأمان، "فآمنه على أن يأتيه فيصالحه، فطلب رهنا يكونون في يديه ويعطي رهائن فأعطى قتيبة حبيب بن عبدالله ... الباهلي، وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته، فخلّف ملك الجوزجان حبيبا بالجوزجان في بعض حصونه وقدم على قتيبة فصالحه، ثم رجع (الملك) فمات بالطالقان فقال أهل الجوزجان: سموه فقتلوا حبيبا، وقتل قتيبة الرهن الذين كانوا عنده" (الطبري، ج ٦، ص ٤٦٠. أنظر كذلك ص ٣٥٢ و ٤٦٣) .

إن ميل قتيبة للصلح لا يعني بأنه لم يخض المعارك الشرسة، بل على العكس من ذلك فإنه لم يتوان عن خوض المعارك إذا كانت هناك ضرورة، وفي بعض الأحيان تعامل مع أعدائه بصورة شرسة جدا بل وربما بشكل مبالغ فيه. من أهم المعارك التي خاضها معركة بيكند عام ٨٧، حيث خاض حربا ضروسا خارج أسوار المدينة فتكللت عملياته العسكرية بالنجاح فهرب من تمكن من أعدائه الى المدينة، وعندما كاد أن يتمكن منها طلب أهل المدينة منه أن يعقد معهم صلحا فوافق على ذلك وعين على مدينتهم حاكما من قبله. وبعد انسحابه من المنطقة في طريق عودته الى مرو وصلته أخبار تفيد بأن المدينة قد نقضت الصلح وقتلوا عامله فعاد اليها وفتحها عنوة بعد أن رفض عرضا جديدا للصلح. وفي أعقاب ذلك قام بقتل كل المقاتلين الذين كانوا ا. وفي عام ٩٠ هاجم مدينة الطالقان التي "كان ملكها قد خلع وانضم الى ثورة نيزك فأتاه قتيبة وأوقع بأهل الطالقان وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وصلب منهم سماطين أربعة فراسخ في نظام واحد" (ابن الأثير، ج ٤، ص ١١٤، ١٠٧. ابن خلدون، ج ٣، ص ٥٩) .

وفي عام ٩١ فتح قتيبة شومان عنوة و"سبى الذرية"، وفتح فارياب وحرقها. وفي نفس السنة قتل نيزك رغم أنه أعطاه الأمان، وقد برر ذلك بأن الحجاج ين يوسف أمره بذلك وإنه استشار الناس وأشاروا عليه بقتله خصوصا أن ضرار بن حصين قد "ذكّره" بأنه أعطى الله عهدا إن أمكنه الله منه أن يقتله، وقال له أيضا "فإن لم تفعل فلا ينصرك الله عليه ابدا"، فقام قتيبة بقتله شخصيا وأمر بقتل عدد من مساعديه وأقاربه وحوالي سبع مائة من أصحابه حسب بعض الروايات وحسب روايات أخرى قتل منهم إثني عشر ألف. وفي خوارزم أمر بقتل أربعة آلاف أسير عام ٩٣ جاء م أخوه عبدالرحمن حيث أسرهم عندما كانوا يقاتلون ضد خوارزمشاه حليف قتيبة، وتذكر الرواية أن قتيبة أمر "بالأسارى فضربت أعناقهم بحضرته، قيل ألفا بين يديه وألفا عن يمينه وألفا عن شماله وألفا من وراء ظهره، ليرهب بذلك

الأعداء من الأتراك وغيرهم" (ابن كثير، ج ٩، ص ٨٤. أنظر أيضا الطبري، ج ٦، ص ٤٧٠). وفي نفس السنة أرسل قتيبة جيشا بقيادة أخيه صالح لينصب كمينا لجيش مكون من أبناء ملوك وأشراف وأبطال الترك وفرغانة والصغد أتوا لمساعدة سمرقند، وقد وقع هؤلاء في الكمين فقضى عليهم قضاءا تاما، وقد روى أحد الجنود العرب ما حدث في هذا الكمين وقال: "فقتلناهم فلم يفلت منهم الا الشريد وحوينا أسلا م وسلاحهم واحتززنا رؤسهم، وأسرنا منهم أسرى ... وكتبنا أسماءهم على آذانم، ثم دخلنا العسكر حين أصبحنا" (ابن الأثير، ج ٤، ص ١٢٦، ١١٧ – ١١٨) .

إنه لا يخف على احد أن الهدف الرئيسي من الفتوحات، أي فتوحات، هو حب السيطرة والتوسع وربما نشر مبادئ دينية أو فكرية معينة. ولا تختلف الفتوحات العربية الإسلامية كثيرا في هذا ا ال عن غيرها. ولكن الى جانب هذه الأسباب كانت هناك أسباب أخرى وعلى وجه الخصوص أسباب اقتصادية. وقد تمثلت المكاسب الإقتصادية ليس فقط في الضرائب السنوية التي تجبيها الدولة الفاتحة من البلاد المفتوحة وإنما ايضا من المبالغ المالية (الأتاوة) التي كانت تفرض على المدن المفتوحة عندما يكون الفتح صلحا، ومن الغنائم التي كان المقاتلون والدولة يحصلون عليها عندما كانت المدن تفتح عنوة. وقد جاءت الغنائم بشكل أموال منقولة كا وهرات والسبي والأسلحة والثياب، وبشكل أموال غير منقولة كالعقارات.

كما هو متوقع فإن فتوحات قتيبة قد تمخضت عن غنائم كثيرة جدا. فقد حصل على غنائم كثيرة عند فتح بيكند عام ٨٧ حيث ذكرت المصادر: "وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يحصى، ولا أصابوا في خراسان مثله، فقوي المسلمون". ومما يسترعي الإنتباه في هذا الفتح، عرض عرضه رجل أعور لافتداء نفسه بخمسة آلاف قطعة حريرية ادعى أن قيمتها تبلغ "ألف ألف" أي

مليون، فالمصدر لم يذكر نوع العملة المقصودة ولكننا نعتقد بأنا كانت العملة الفضية أي الدراهم لأن كل البلاد الشرقية من العالم الإسلامي كانت تتعامل بالدراهم الفضية وليس بالدنانير الذهبية. في جميع الأحوال كان المبلغ المقترح كبيرا جدا، الا أن قتيبة لم يسمع بنصيحة جنوده فقام بقتله لأنه هو الذي كان قد ألّب أهل الصغد والأتراك على محاربته. وفي بخارى حصل العرب والمسلمون على غنائم كثيرة، ومن هذه الغنائم ما أعلنه قتيبة للمقاتلين بأن كل من يأتي برأس من رؤوس أعدائه فله مائة، وذلك تشجيعا منه لمقاتليه على مقاتلة الأعداء فجاؤوا اليه برؤوس كثيرة جدا. وفي عام ٩٢ صالح رتبيل ملك سجستان على أموال عظيمة، خيول ورقيق ونساء من بنات الملوك. وفي خوارزم صالح قتيبة أهلها بعد أن انتصر عليهم على "عين ومتاع" وعشرة آلاف رأس وقيل مائة ألف رأس (ابن الأثير، ج ٤، ص ١٠٧، ١١٣، ١٢٦. الطبري، ج ٦، ص ٤٧٠. Encyclopaedia of Islam. 2 ed. Vol. 5, pp 541 - 542). والمقصود بالرؤوس هنا ليس رؤوس من المواشي وإنما برجال أحياء. ولكن هل كان المقصود أن هؤلاء الرجال سيصبحون عبيدا ويباعوا في سوق النخاسة أم أنم كانوا جنودا في بلادهم وكان عليهم أن يلتحقوا بجيش قتيبة عندما كان يحتاج اليهم؟ ورغم أن ابن كثير يذكر بأنم كانوا عبيدا الا أننا نعتقد أن قتيبة قد صالحهم على محاربين لأننا نجد محاربين محليين في جيوشه بأعداد كبيرة جدا في كثير من الحالات، وكان من بين هؤلاء المحاربين المحليين محاربين من خوارزم. (ابن كثير، ج ٩، ص ٨٥) .

كانت غنائم سمرقند عام ٩٣ أعظم الغنائم التي حصل عليها قتيبة. فقد ذكرت إحدى الروايات أنه صالح أهلها على: " ألفي ألف ومائتي ألف (أي ٢٢٠٠٠٠٠) في كل عام، على أن يعطوه في تلك السنة ثلاثين الف رأس، ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب" (فهل هؤلاء عبيد أم مقاتلين؟ فإن الأمر غير واضح). وفي رواية أخرى فإنه صالحهم على: "مائة ألف رأس وبيوت النار (المعابد) وحلية الأصنام،

فقبض ما صالحهم عليه، وأتى الأصنام فسلبت، ثم وضعت بين يديه، فكانت كالقصر العظيم حين جمعت، فأمر بتحريقها، ... ثم أشعلها، ... فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال" أي ما يعادل ٢١٢ كيلو غرام. كما أنه حصل على جارية من أولاد يزدجرد (آخر الملوك الساسانيين) "فقالَ: أترون ابن هذه يكون هجينا؟ فقالوا نعم، فبعث ا الى الحجاج، فبعث ا الحجاج الى (الخليفة) الوليد، فولدت له يزيد بن الوليد" الذي أصبح فيما بعد الخليفة الأموي الثاني عشر والذي لم يحكم الا بضعة أشهر من عام ١٢٧ وقد مات في الطاعون وعرف بالناقص لأنه أنقص من أعطيات الجند (الطبري، ج ٦، ص ٤٧٥ – ٤٥٧. أنظر أيضا ابن الأثير، ج ٤، ص ١٢٧. ابن خلدون، ج ٣، ص ٦٣). وفي هذا ما يغني عن كل شرح عن قيمة الغنائم التي كانوا يحصلون عليها في الحروب .

**نهاية قتيبة :**

قتل قتيبة عندما كان في عنفوان شبابه حيث كان يبلغ من العمر ست وأربعين سنة. وكان قتله مرتبط بموافقته وتأييده للخليفة الوليد بن عبد الملك في تحويل ولاية العهد من اخيه سليمان بن عبد الملك الى إبنه عبد العزيز. وقد أيد الوليد بن عبد الملك في رغبته هذه عدد من القادة المهمين أمثال الحجاج بن يوسف الى جانب قتيبة. ولسؤ حظ قتيبة والقادة الآخرين توفي الوليد قبل أن يتمكن من إقصاء أخيه عن ولاية العهد، فقام الخليفة الجديد بتنحية كل من أيد عملية إقصائه عن ولاية العهد ووكل م من يعذ م وينتقم منهم. بالنسبة لقتيبة فإنه عندما علم بموت الوليد وتنصيب سليمان مكانه أوقف عملية الفتوحات وجمع اخوته وأقاربه واستشارهم فيما يجب عليه عمله، فأشار عليه أخوه عبد الرحمن أن يرسل أهله وأقاربه الى سمرقند ويتخذ منها ومن منطقة ما وراء النهر مقرا له وينتظر ما تؤول

اليه الأمور. أما أخوه عبد الله فقال له: "اخلعه مكانك (وكان وقتها في منطقة فرغانة) وادع الناس الى خلعه، فليس يختلف عليك رجلان" (الطبري، ج ٦، ص ٥٠٩. ابن كثير، ج ٩، ص ٨٨، ١٦٦. Encyclopaedia of Islam. 2 ed. vol. 5, p. 542).

في ظل الظروف الصعبة هذه بعث قتيبة الى الخليفة الجديد بثلاث رسائل: ضمن الرسالة الأولى تهنئة الخليفة الجديد بالخلافة، وذكر بلاءه بالعدو وطاعته للخلفاء السابقين عبد الملك والوليد، وانه على استعداد تام أن يكون على نفس الولاء له إن لم يعزله من منصبه. وضمن كتابه الثاني معلومات عن فتوحاته ومدى نكايته بالعدو وهيبته بينهم، وذم أهل المهلب لإعتقاده بأن سليمان سوف يعين يزيد بن المهلب على خراسان، وهدد بأنه سوف لن يسمح ليزيد بحكم الولاية إذا ما قام سليمان بتعيينه في هذا المنصب. أما الكتاب الثالث فضمنه تهديدا لسليمان نفسه بأنه سوف يعلن التمرد ضده إذا أقاله من منصبه. وقد بعث بالكتب الثلاث مع رجل من قبيلة باهلة وطلب منه أن يسلم الخليفة الكتاب الأول في البداية وقال له إذا كان يزيد بن المهلب الى جانبه ودفع الخليفة بالكتاب الى يزيد قم بتسليمه الكتاب الثاني وإذا ناول الخليفة الكتاب الثاني الى يزيد قم بتسليمه الكتاب الثالث. وبالفعل فقد وجد الرسول يزيد بن المهلب الى جانب الخليفة فسلم الخليفة الكتاب الأول فقرأه الخليفة ودفعه ليزيد، فقام الباهلي بتسليمه الكتاب الثاني فقرأه ودفعه الى يزيد، عندها سلمه الكتاب الثالث فقرأه الخليفة فتغير لون وجهه ولم يدفعه الى يزيد. فما كان من سليمان الا أن أحسن للرجل الباهلي وأكرمه وكتب لقتيبة بكتاب جدد فيه تعيينه على خراسان، وبعث مع الباهلي رسولا من قبله ليؤكد لقتيبة صدقه في التعيين. وعندما وصل الرسولان الى مدينة حلوان (مدينة في غرب إيران) في طريقهما الى خراسان وصلهما خبر خلع قتيبة للخليفة وعصيانه، وحسب رواية أخرى وصلهما خبر مقتل قتيبة، الا أن الرواية الأولى أدق. فعاد رسول

الخليفة الى دمشق وحمل الباهلي كتاب تجديد التعيين الى قتيبة، فاستشار قتيبة مستشاريه فأشاروا عليه بالإستمرار في خلع الخليفة لأن الخليفة سوف لن يقبل منه أن يبقى في منصبه بعد ما آلت اليها الأوضاع أثناء سفر الباهلي وعلى وجه الخصوص خلع قتيبة للخليفة ( ابن خليكان، ص ٢٩٦. ابن كثير، ج ٩، ص ١٦٦ – ١٦٧) .

في تلك الأثناء كان قتيبة قد قبل بنصيحة أخيه عبد الله فقام بخلع الخليفة واعلانه التمرد ودعا جيشه لتأييده الا أن الجنود رفضوا ذلك ولم يؤيدوه. وقد غضب قتيبة من جنوده غضبا شديد،ا فخطب فيهم خطبة عنيفة أساء لهم ا وسبهم وأدعى بأنه جعل منهم جنودا فاتحين بعد أن كانوا رعاة أبل ومواشي وجعلهم أغنياء بعد أن كانوا فقراء وجعلهم قادة وفاتحين معززين مكرمين بعد أن كانوا مهملين، وذكرهم بأنم كانوا من مؤيدي مسيلمة الكذاب وسجاح وما الى ذلك من سباب. وذكّرهم بأنه عراقي النسب والهوى والدين مثلهم، وأن الولاة الجدد الذين سيبعث م الخليفة الجديد الى خراسان سيسومونم سوء العذاب وسيسلبونم غنائمهم حيث قال لهم: "يا أهل خراسان، هل تدرون من وليكم؟ وليكم يزيد بن ثروان. كأني بأمير مزجاء، وحكم قد جاءكم فغلبكم على فيئكم ... إن الشام أب مبرور، وإن العراق أب مكفور. حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتكم وظلال دياركم! يا أهل خراسان، انسبوني تجدوني عراقي الأم، عراقي الأب، عراقي المولد، عراقي الهوى والرأي والدين ..." (الطبري، ج ٦، ص ٥١٠) .

عند فحص المعلومات المتوفرة لدينا نجد أن أسباب عدم تأييد الجنود لقتيبة كانت التزامهم بالسلطة الشرعية المتمثلة بالخليفة. الى جانب ذلك فإن تصرف قتيبة والإساءة للجنود وقبائلهم في خطبته المذكورة قد جعلهم يتمسكون بالسلطة الشرعية أكثر من ذي قبل. في مقابل ذلك لم نجد قبائل أو أشخاص قد أرادوا إقالة

قتيبة من منصبه لسؤ تصرفه معهم أثناء فترة ولايته، بل على العكس من ذلك فيظهر بأن سياسته معهم كانت سياسة حكيمة وجيدة. الحادثة الوحيدة التي توفرت لدينا والتي أشارت الى عدم رضى أحد رؤساء القبائل العربية من سياسته كانت حادثة إقالته لوكيع بن أبي سود الذي كان قائدا لبني تميم وتعيين ضرار بن حصين بن زيد الفوارس مكانه. وعندما أعلنت القبائل العربية عن رفضها قبول دعوة قتيبة خلع الخليفة، وعندما قررت القبائل تعيين قائدا عليها يقودها ضد قتيبة، لم تجد أفضل من وكيع بن أبي سود. أما الأسباب التي أدت الى اختيار وكيع لهذا المنصب فكثيرة أهمها أنه كان ينتمي الى قبيلة تميم التي كانت أكبر القبائل العربية في خراسان، وكانت هذه القبيلة تنتمي الى مجموعة القبائل المضرية (العدنانية) التي كانت تنتمي اليها غالبية قبائل خراسان. وكما ذكر سابقا فإن وكيع كان على خلاف مع قتيبة بسبب إقالته من قيادة قبيلته. الى جانب ذلك فإن الظروف كانت خطيرة وحرجة للغاية لذلك لم يقبل بالقيادة العامة أي من قادة القبائل لذلك عرضوا هذا المنصب على وكيع الذي وصفوه "بالأعرابي ..، فإنه مقدام لا يبالي ما ركب، ولا ينظر في عاقبة، وله عشيرة كثيرة تطيعه، وهو موتور بطلب قتيبة برياسته التي صرفها عنه وصيرها لضرار بن حصين الفوارس". كما أن المصادر وصفت وكيعا بأنه شخص شرس حتى أنه لا يبالي بتطبيق حدود الشرع الإسلامي، فقد ذكرت عنه أنه رأى يوما شخصا سكرانا فأمر بقتله فقتل "فقيل له: ليس عليه القتل إنما عليه الحد، قال: لا أعاقب بالسياط ولكني أعاقب بالسيف" علما أنه هو نفسه كان متهما بالشرب والسكر. ومن بين القادة المهمين الذين لعبوا دورا مهما في هذه الحوادث كان حيان النبطي الذي كان يقود حوالي سبعة الآف جندي من الموالي، وكان حيان قد اتفق مع وكيع على أن يؤيده مقابل أن يمنحه وكيع خراج المنطقة الشرقية من نهر بلخ طيلة فترة قيادة وكيع، فوافق وكيع على ذلك ووفى له بعد مقتل قتيبة (الطبري، ج ٦، ص ٥١١، ٥١٩) .

لقد كانت نهاية قتيبة نهاية محزنة. فبعد أن أبلى بلاء حسنا في فتح البلاد ووصل الى مداخل الصين باسم العرب والمسلمين، وبعد أن استقرت المنطقة لهم وأخذ الإسلام ينتشر بسرعة بين شعوب تلك البلاد، تغيرت الظروف فجأة وهاجم الجنود العرب المسلمين أنفسهم قتيبة وقتلوه وحزوا رأسه. كما أنهم قتلوا جميع اخوته وأبناء عائلته الذين لم ينجحوا بالفرار، وكان عددهم أحد عشر رجلا نذكر منهم اخوته عبد الرحمن وصالح وعبد الله وابنه كثير. ومن ثم قام وكيع بصلب جميع جثثهم، ولم يوافق على دفن رؤوسهم التي قطعت الا بعد فترة طويلة (ابن الأثير، ج ٤، ص ١٤١. الطبري، ج ٦، ص ٥١٥ – ٥١٨. Encyclopaedia of Islam. 2 ed. vol. 5, p. 542).

ومما يسترعي الإنتباه أن الأعاجم قد استهجنوا فعلة العرب بقائدهم العظيم، حيث تذكر المصادر أن رجلا من العجم من أهل خراسان قال: "يا معشر العرب، قتلتم قتيبة، والله لو كان قتيبة منا فمات فينا جعلناه في تابوت فكُنا نستفتح به إذا غزونا، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة. ... وكان قتيبة عندهم ملك العرب" (الطبري، ج ٦، ٥١٩) .

بعد مقتل قتيبة وتبدل السياسة عادت منطقة ما وراء النهر مسرعة الى الثورة والتمرد والعودة الى ديانا ا القديمة، الأمر الذي تطلب جهودا كبيرة وحملات عسكرية كثيرة لإخماد تلك الثورات. وفي عام ١١٠ حاول والي خراسان أشرس أن ينشر الدين الإسلامي بين أهل الصغد لعلهم يتوقفوا عن القيام بالثورات ضد الحكم العربي الإسلامي، فوعدهم بأنه سيسقط عنهم الجزية إذا أسلموا، علما أن من سبقه من الولاة كانوا يفرضون عليهم هذه الضريبة حتى بعد إسلامهم، فدخلت أعداد كبيرة منهم في الدين الإسلامي الأمر الذي أخل بميزانية الدولة. ولكي يتملص الحكام من وعدهم هذا فرضوا عليهم شروطا صعبة جدا لكي يثبتوا

أمامهم بأنهم فعلا قد أسلموا عن اقتناع وليس هربا من الجزية، فخرج سبعة آلاف منهم بشكل احتجاجي وعسكروا خارج مدينة سمرقند، ومن ثم لحق بهم عدد كبير من القُراء والمسلمين العرب تأييدا لهم. وفي بخارى تكررت الصورة حيث خرجت جموع كبيرة من المسلمين الجدد وصاحوا بأعلى صوتهم "أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله"، الا أن الولاة لم يرتدعوا بل قتلوا منهم أكثر من أربع مائة شخص (صادق، ص ٢١٥ – ٢١٧. الطبري، ج٦، ص ٦١٢ - ٦١٣، ٦٢٠ – ٦٢٢) .

**الخاتمة :**

لقد بدأت عملية فتح منطقة ما وراء النهر قبل فترة ولاية قتيبة بن مسلم الباهلي بفترة طويلة، حيث بدأت في فترة خلافة عثمان بن عفان الراشدي، ولم تنته هذه العملية بفتوحات قتيبة لأن المنطقة عادت الى الانتفاض بعد مقتله، وكان لا بد للدولة الأموية من تجريد الحملات العسكرية في المنطقة المرة تلو الأخرى، ولكن النشاط الذي قام به قتيبة يعتبر الفتح الرئيسي للمنطقة حيث انّ الأعمال العسكرية فيها والتي جاءت بعد مقتل قتيبة اتصفت بأنها مجرد محاولات لإخماد ثورات لا أكثر ولا أقل .

لقد جاءت الفتوحات الإسلامية بشكل موجات تتلو بعضها بعضا ولم تأت بشكل حملات متواصلة، ولم ينبع ذلك فقط من الحاجة الى إلتقاط الأنفاس وإعادة تنظيم الصفوف أو بسبب عدم استقرار الأوضاع الداخلية في مركز العالم الإسلامي وفي عاصمة الخلافة، وإنما جاء أيضا بسبب عدم وجود سياسة فتوحات تلزم جميع الخلفاء والقادة. لقد اعتمدت تلك السياسة في الأساس على الرأي والرغبة والتوجه الشخصي لدى الخلفاء ولدى ولاة المناطق وقادة الجيش المحليين. لقد تأثرت الفتوحات الإسلامية في منطقة ما وراء النهر من هذا الوضع بشكل كبير ربما يفوق

تأثر الولايات الأخرى ا، والسبب في ذلك بعدها الكبير عن مركز الدولة. فكلما قام القادة بفتح البلاد أو اخماد الثورات التي كانت تندلع ا كانت عملية الفتح تخبو من جديد الأمر الذي كان يشجع السكان المحليين على العصيان والتمرد والعودة لديانا م وأنظمتهم القديمة . بكلمات أخرى ، إنّ عدم وجود سياسة فتوحات ملزمة أهدرت جهودا كبيرة جدا وتسببت في أعمال قتل ودمار عظيمة كان الطرفان في غنى عنها .

من المعروف أنّ أعمال العنف من قتل ودمار وخراب تصاحب جميع الحروب في كلّ بقاع العالم وفي كلّ الأزمنة ، ولم تشذّ فتوحات قتيبة في منطقة ما وراء النهر عن هذه القاعدة ، حيث قُتل مئات آلاف الأشخاص ودمرت وحرقت قرى ومدن وقصور ومعابد وبيوت ومنشآت اقتصادية كثيرة . كلّ ذلك رغم أنّ قتيبة كان يميل إلى الصلح أكثر من ميله إلى فتح البلاد عنوة . ولا بد لنا أن نأسف على كلّ تلك الأرواح التي أهدرت والممتلكات التي دمرت . وربما أكثر ما يأسف له المؤرخ دمار وإحراق تراث شعوب المنطقة ، وعلى وجه الخصوص التماثيل والحلي والمعابد التي تمّ إحراقها في سمرقند عام ٩٣ ؛ فلو وصلتنا تلك الآثار ، لزودتنا بمعلومات كثيرة عن تاريخ ومعتقدات شعوب المنطقة ، خصوصا أنّ تاريخهم الذي سبق الإسلام ما زال خفيا ويشوبه الغموض . ولكن لا بد من الإشارة إلى أننا لا نعتقد بأنّ تلك الآثار كانت ستصلنا ، لو لم يحرقها قتيبة ، لأنّ الحروب الكثيرة التي توالت على المنطقة بعد قتيبة كانت كفيلة بتدميرها .

لقد كان قتيبة فاتحًا عظيما ، قد كرس كلّ فترة ولايته للمجهود الحربي . ورغم أنه يعتبر من الفاتحين النشيطين الحازمين إلا أنه كان في نفس الوقت مسالمًا حيث كان على استعداد للقبول بمقترحات الصلح ، كلّما كان هناك سبيل إلى ذلك . ومما يؤسف له أنّ هذا القائد العظيم قد قتل على يد جنوده وزملائه وأبناء شعبه ، ليس

لأنه قد اقترف ذنبا جسيما بحق أمته ودولته ، إنما لأنه قد أيد لمنصب الخلافة شخصا آخر غير الشخص الذي تمّ تعيينه فعلاً ـذا المنصب .

## ثبت المصادر والمراجع

١- ابن الأثير ، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم . **الكامل** في **التاريخ** . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٣ .

٢- ابن الجوزي . **المنتظم** . في موقع الإنترنت www.alwaraq.net

٣- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد . **تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر**. بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٩٧١ .

٤- ابن خلكان . **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** . في موقع الإنترنت www.alwaraq.net

٥- ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ . **البداية والنهاية** . بيروت والرياض : مكتبة المعارف ومكتبة النصر ، ١٩٦٦ .

٦- أبو حنيفة الدينوري . **الأخبار الطوال** . في موقع الإنترنت www.alwaraq.net

٧- أبو خليل، شوقي. **الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة**. بيروت ودمشق: دار الفكر، ١٩٩٦.

٨- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير . **تاريخ الطبري : تاريخ الرسل والملوك**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ .

٩- صادق ، حسن . **جذور الفتنة** في **الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات** . القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٩١ .

١٠- The Encyclopaedia of Islam. Leiden: E.J. Brill, vol. 5. 1986.